ابن زويبن..
مجموعة شعراء في شاعر

محمد عوض الله العمري

(والماء مطر من قلتةٍ في ظهر جال يطيح فيها الطير من صفو ماها)

عندما تقرأ أو تسمع البيت السابق، تدرك أن قائله شاعر مختلف، دون الانتقاص من بقية الشعراء، فلهم التقدير والثناء على ما يقدمونه للساحة الشعرية والثقافية، وإنه لا يسع المتذوق للشعر إلا أن يبحث عن قائله.

هذا البيت للشاعر عبد الله بن زويبن (داهية الشعر)، والمتتبع لشعر عبد الله بن زويبن لا يستغرب، ولا يصاب بدهشة، فابن زويبن لم يترك غرضًا شعريًا دون أن يترك له بصمة خاصة وصبغة مختلفة تميزه عن غيره.

حين أراد أن يصف صفو الماء ونقاءه، صاغ مضمونه بجمل شعرية تحمل صبغته الخاصة، لذلك اختلف عن غيره، لأن المعنى مطروح ومتاح للجميع لكن شاعرنا صاغة بأسلوب وصفي بديع.

وفي منظر وصفي غزلي يقول:

وإلى ادبرت غطت جسدها المجاديل بين الخلايق لو تعرى كستها
إن كفته مثل الغصون المحاميل وإن فلته قام يتثنّى تحتها

وفي إحدى روائعه بل إحدى عيون الشعر وهي من بواكير انتاجه التي يقول في مطلعها:

سمعت لي كلمةٍ مدري وش أقصاها حزت بصدري وأنا ماني بهارجها
لو كل كلمة ليا جتنا طردناها بعنا الثمينة بسعر ما يخارجها

ويستطرد في الهطول العذب من سحائب الحكمة فيمطرنا بقوله:

إن صدت الناس عنا ما اعترضناها ما تقفي الناس عنا و انتولجها
وإن جاتنا الطيبة بالطيب زدناها الطيبة بالعسل والسمن نمزجها
وإن جاتنا الثانية نصبر ونرفاها يمكن ليا فاق راعيها يعالجها

ولا ينضب معين ابداع ابن زويبن، ولا تكاد أن توشك على الارتواء إلا ويقع بصرك أو تطرق مسمعك هطولات من أطهر وأنقى الشعر والمشاعر فتقف وتستزيد

يا قلب خلك للروابع والاوهام رفيق درب وكل همٍ تبنه
والا انتفض واربط محقاك بحزام و (عن قوم وش سويت) خافيك كنه

جزالة اللفظ، وحسن التقاط الصورة، وتوظيف المفردة توظيفًا لائقًا، وسعة الخيال، وصدق العاطفة، وترابط المعاني بصورة عجيبة، ودقة الوصف، والتدفق الغزير للمعلومات والثقافة، والإحساس الذي يصل بأسهل الطرق وأيسرها للمتلقي، كل هذه المعطيات جعلت عبد الله بن زويبن الحربي في قمة الشعر، وأحد أبرز أعلامة.

إن كنا نعتني بقراءة ديوان امرئ القيس وطرفة والأعشى وزهير وعنترة وجرير والفرزدق وأبي تمام والبحتري والمتنبي وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين، فلابد من إضافة ديوان ابن زويبن لتلك الدواوين، بل ربما تجد عنده مالا تجده عند المتقدمين، في ابتكار الصور وجودة الوصف، إضافة إلى إنه لم يترك موضوعًا لم يتطرق له في شعره. ومن يحفظ قصائده لا يتردد في الاستشهاد بأبياتها في معرض حديثه في أي موضوع يريد الحديث فيه.

إن كان تنشد عن علومي وأنا صبي ابتذكرها واعلمك عنها
لو هي بصفحاتٍ طواها الزمن طي جرة مطر جاها عجاج ودفنها
ألعب طواريق الهوى مع هل الغي أثقّل المعنى وأخفف لحنها
والشعر يبقى في قلوب العرب حي ولا كل من سوى القصيدة تكنها
وأنا حداها حدي الأصعاب بعصي واقودها قود الاديب برسنها

وفي هطول آخر يقول:

ألعب بشعر النبط وأوزن معاييره وزن الذهب بين متسوق وبياعي
واليوم كثروا على الساحة مغاويره كلٍ ركب له جواد وجاك فزاعي
ما فيه عدٍ يعرفون العرب بيره الا بجنبه ثمانين الف نباعي
وكل لحاله تصفق له جماهيره ياكثر صفق الكفوف وطق الاصباعي
لو يابس السدر ما عاشت عصافيره تصرعت قبل مايابس تصراعي
كلٍ يقيّم وقدرة مثل تقديره الحج لله واجر الحج للساعي
وكل يحاسب على مبلغ فواتيره والخام باليادة والكيل بالصاعي
لو البضايع تباع بدون تسعيره ما يمرح الفقر في مخباة طماعي

وهنا تصوير بارع:

(يشرب بجلد بعير من جمٍ أزرق ويجذب بسلسلةٍ قويٍ حلقها)

ولا نزال في أروقة ودهاليز جنة ابن زويبن الشعرية التي لا يُملُّ من التعرج بين مفاتنها وجمال روعتها والارتواء من عذب قراحها اعتلال نسيمها وجودة مغانيها بعد معانيها:

ما راح من دنيا الفنا بألف طقاق العمر سلفه والأوادم طراقي

رحم الله الشاعر عبد الله بن زويبن الحربي الذي افتقده الشعر ومحبيه، فقد كان قصيدة نادرة، وديوانًا مكتمل الأركان، مكتنز الفنون، موثوق الجمال، غزير الإنتاج، بعيدًا عن التكلف، مطبوع بطبعه، مشهودًا له بالسبق.

(وابن زويبن لو يطيع انتخبناه في وسط سوق عكاظ للشعر قاضي)

*عبد الله بن عون